واقع الكتابة ومشكل الإبداع عند أبطال محمد مفلاح الروائية
الانهيار – الانكسار – الوساوس الغريبة، أنموذجا

The fact of writing and the problem of creativity among the heroes of Muhammad Muflah, the novelist Collapse - brokenness - strange obsessions, as a model

زهية طرشي[1] ،بن قلح أسماء[2]

[1] جامعة محمد خيضر –بسكرة (الجزائر)، zahiatorchi2016@gmail.com

[2] جامعة الحاج لخضر –باتنة 01(الجزائر)، joodajooda1@gmail.com

تاريخ الاستلام:2023/01/23 تاريخ القبول:2023/05/18 تاريخ النشر:2023/06/18

الملخص:

الكتابة هيّ ولادة للنّص من رحم الذّات المفكّرة المتأمّلة والمتألمة؛ ذلك أنّ كلّ مهووس بها هو شخص حامل للفكرة التي أثرت في مشاعره ونهشت عقله مطوّلا؛ وصار يبحث عن وعاء يحتويها لأنها ضرورة حتميّة ورهينة للفكرة التي لم تنضج بعد؛ وعليه تأتي الحاجة المُلحّة لطرحها في لحظة إبداع تحمل بين طيّاتها اللّذة والألم؛ وفي هذا المقام تتجلّى ثيمات هذه التجربة الإبداعية الفذّة، فتصنعها تلك الهوة واللّحظة الشّبقية بين الكاتب ونفسه، بينه وبين المحبرة والقلم، من خلال ما قدّمه الروائي الجزائري "محمد مفلاح" عبر ثلاثة من متونه السّردية التي عالجت هذه الظّاهرة الأدبيّة، وهيّ (الانهيار، الانكسار، والوساوس الغريبة). يروم هذا المقال بيانها.

كلمات مفتاحية: هاجسالكتابة، الإبداع، الإشكالية، البطل، العمل الرّوائي.

Abstract:

Writing is The birth of the text from the womb of the thinking, contemplating and suffering self. this is because every person who is obsessed with it is a person who carries an idea that affected his feelings andravaged his mind for a long time. And he started looking for a container to contain it, since it is an inevitable necessity. And a hostage to the idea that has not yet matured.Hence the urgent need to present it at a moment of creativity that carries with it pleasure and pain. In this regard, the themes of this unique creative experience are evident, and it is created by that gap and the moment of eroticism between the writer and himself ,through wat Algerian novelist ,òMohamed Meflahò, through three of his narrative texts that (collapse, brokenness, and strange obsessions). This article intends to explain it.

Key words: 5 words:
obsessionwithwriting,creativity, problematic, hero, fictional work.

المؤلف المرسل: زهية طرشي، **الإيميل:**zahiatorchi2016@gmail.com

1. مقدمة:

لكل جماعة بشرية إنتاج مخيالي خاص، قد تشابه الواقع اليومي، وقد يتجاوزه لما هو أشمل وأعمق وأكثر فلسفة، وبذلك نجد أنّ الرواية باعتبارها من أكثر الأجناس الأدبية انفتاحا على التجريب المتواصل، مما جعلها في بحث لا ينتهي عن جديد الأساليب وجديد الأشكال.

وعليه أصبحت في تطور مستمر وبوتيرة سريعة، أين انعكس ذلك على النتاج الروائي الجزائري، شأنه في ذلك شأن نظيراتها من الروايات العربية الأخرى، ولذلك نجد الأديب "محمد مفلاح" في كل مرّة يحاول أن يجعل طرحه الرّوائي أكثر عمقا في ملامسة الذات الإنسانية، يتعدّى حدود المعانات اليومية التي يتكبدها الفرد بحثا عن لقمة العيش، وما يعانيه من صراعات نفسيّة وجسديّة مع أخيه الإنسان ومع الطبيعة لينتصر لذاته ويضمن بقاءه واستمراريته في كنف حياة أفضل، وهذا ما عكسته مختلف الأعمال التي تناولناها بالدراسة لحدّ الآن، فيما نجده هذه المرة وعبر طرحه لقضية "**الكتابة والإبداع**" يتعدى حدود المألوف ؛ ذلك أنّ هذا الموضوع في حدّ ذاته يعتبر واحدا من أهم القضايا الإنسانية العالقة؛ كونها لا تبحث في انتصار الإنسان لذاته فحسب، بل تتعداها للبحث في كنهات النفس البشرية وهيّ تتخبط داخليّا وخارجيّا، في علاقة تأثر وتأثير مع المجتمع، وهذا مالمسناه كظاهرة أدبية أخرى بارزة في الطرح المفلاحي، تجلت في أعماله الروائية المختلفة؛ سنأتي على ذكرها تباعا.

2.هاجس الكتابة والإبداع في أعمال "محمد مفلاح" الروائية:

وتعتبر قضية "**الكتابة والإبداع**" من أهم القضايا الأدبية التي عالجها الأديب في رواياته "الانهيار"، "الوساوس الغريبة"، "الانكسار"؛ « حيث تمثل النموذج الملموس في عالم الكتابة المختلفة».(بن جلولي، 2009، صفحة 57) وذلك باعتبارها فنا راقيّا ينطلق من الإنسان ويعود إليه عبر عملية إبداعية تفاعلية في علاقة تأثر وتأثير، تساهم في دفع عجلة الأمم نحو التطور وترقية شعوبها، ونظرا للأهمية التي تحظى بها هذه الأخيرة، يسلط "مفلاح" الضوء على أبجديات الكتابة ومدى صعوبة ولادتها من خلال عوامل تتفاعل فيما بينها أساسها ظروف مختلفة، خارجية وداخلية تتعلق بالكاتب وما يحيط به، وحين نمعن النّظر في العنفوان الذي يسكن الذات الكاتبة التي صوّرها "مفلاح" من خلال أبطال نصوصه الروائيّة، عبر ثلاث محاور (الحب، والحلم، والكتابة)، ومن خلال هذه المراحل

يحاول "مفلاح" تمرير رسائل الخلاص من أوجاع الذات للتوصل نحو نشوء الكتابة في تصاعد تدريجي تنشد الإبداع.

ويتجلى هاجس الكتابة عند أبطال روايات "محمد مفلاح" الثلاث **(الانهيار، الانكسار، الوساوس الغريبة)**، وكلها أعمال جسّدت فعل الكتابة كإرادة للذات من أجل التغيير. وهيّ بهذا المفهوم تحمل نظرة وجودية لدى أبطال "مفلاح" الذين اعتبروا الكتابة جسرا لتمرير أفكارهم و إثبات وجودهم.

أين يطرح الكاتب محنة اغتراب الذات المتأملة التي تبحث عن الحقيقة، أو تريد إسماع العالم بالحقيقة المغايرة التي تعرفها، فوجدت أنّ أقرب طريقة لذلك هي الكتابة، ونحن هنا ننوه بأمرين بارزين يؤكدان على أنّ الكاتب "مفلاح" لا يختار مواضيع عبثا، بل إنّ جُل اختياراته نابعة عن وعيّ خالص، وإدراكٍ مطلقٍ بتقنيات الكتابة؛ وذلك من خلال جعل أبطاله الوجوديّين يختارون فنّ الكتابة دون غيره من الفنون الأخرى، لتمرير أفكارهم انطلاقا من أمرين، الأولى هي نتيجة لإدراك "مفلاح" أّن العمل الأدبي لا يتعارض مع الفكر الوجودي، بل بالعكس يخدمه ويُكمله، ذلك « أن العمل الأدبي يعتبر المساعد الأول والهام لانتشار الأفكار الوجودية، حيث كانت هذه الأخيرة عبارة عن أفكار فلسفية غامضة، فما كانت لتنتشر وتظهر لولا هذه الأعمال الأدبية التي جاءت مواضيعها تختص بالإنسان ومعاناته وعلاقته بالوجود، فوجدت الأرض والتربة الصالحة الخصبة في القصص والروايات والمسرحيات »(مضوي و منبه، 2012-2013، صفحة 20).

هذا؛ وقد تزامنت الروايات السالفة الذكر(الانهيار، الانكسار، و الوساوس الغريبة) مع الفترة التي تتراوح بين (1986-2010م) وهيّ الفترة التي لم تنتشر فيها الأنترنت بعد، أو بالأحرى لم تتوفر، مما يجعل فن الكتابة هو الأسرع والأفضل لخدمة السّرد "المفلاحي" من خلال ثنائيتي (الكتابة والوجود)، وعبر ثلاث محاور (الحب، الحلم، والكتابة)، أين يضع "مفلاح" القارئ في لحظة انخراط الكاتب في عالم الإبداع، فيستعرض تداعيات تلك المرحلة الفاصلة بين الرغبة في ممارسة الكتابة وبلوغ مستوى الإبداع، وبالتالي إثبات الوجود « وبهذا استطاع الأدب أن يُظهر الوجودية في شكل جديد بعيدا عن الفلسفة، فتكون أكثر قُربًا

للقارىء الذي طالما وجدها تُجيبهُ عن أسئلته الدّاخلية »(مضوي و منبه، 2012-2013، صفحة 20)

يقول "مفلاح" في بداية رواية "الانهيار" « الكتابة ولادة عسيرة وطموح محفوظ لا حدود له»(مفلاح، 2007، صفحة 6)، أين تحيلنا هذه الاستهلالية إلى انصهار مفهوم الكتابة مع قيمتها الأدبية، حين يقول بأنها ولادة عسيرة، وهو بهذا المفهوم يؤسس للحديث عن صعوبة العملية الإبداعية، و بهذا القول نجده يتفق مع عديد من الدارسين والأدباء الذين تطرّقوا إلى مفهوم الكتابة، يقول "الأخضر بن السائح" في كتابه « القلم ألم والكتابة مخاض وعسر ولادة»(بن السائح، 2010، صفحة 55).

ولابد أن هذه المكانة التي حظيت بها الكتابة قد راقت العديد من الدّارسين لهذا الموضوع أولئك الذين نظروا للكتابة على أنها « لحظة جنينية بكلّ ماتعنيه الكلمة، يحمل الكاتب بأفكاره ورؤاه كما تحمل الأنثى بأجنّتها، يعيش معها أوجاعًا وأحلامًا وتصوّرات سبق مخاضا عظيما، لكن عوض أنّ تسيل منه الدّماء يسيل منه الحبر »(وهبي، 2015)، كما تحدّثت أيضا "آسيا رحاحليّة" عن ثنائيتي "الكتابة والولادة" في الأدب قائلة: « هنا وجدتني في الولادة (لغة وليس مجازا) والكتابة كتجربتين تشتركان لحدٍ ما، في عامل المدّة الزمنية والجهد، وفي عمليتي البدء والنهاية البدء/ انقباضات الفكر/انقباضات الرحم، وكمعنيين كثيرا ما تجاورا(ولادة النص، كتبي أولادي، مخاض الكتابة، الكتابة ولادة، مولود أدبي جديد).. »(رحاحلية، 2017).

ثمّ تسرد لنا هذه الكاتبة واصفة لنا تجربتها مع الاثنين (الكتابة والولادة) فتقول: « وخلصتُ باعتباري امرأة مرت بالتجربتين وعاشت الحدثين إلى أنه لا يمكن مقارنة الكتابة بالولادة سوى في حالة واحدة، الامتلاءوالانفصالبانقطاع "الحبل السُّري" يكون النّص في أعماقك، ثم ينفصل عنك تماما كما ينفصل الجنين لحظة الولادة، لكن الكتابة كفعل إبداعي متعة بينها الولادة ألم »(رحاحلية، 2017).

وهنا نجد أن هذه الكاتبة باعتبارها أم وأديبة؛ قد مرّت بالتجربتين، وتؤكد فعلا أن الكتابة حقٌ وولادة، لأنها لحظة انفصال الفكرة من عقل صاحبها وخروجها للنُّور، ولكنها تحسم الأمر بقولها أنّ الكتابة متعة والولادة ألم.وفي هذا السياق نجد الدكتور "عبد الله الغذامي" يقول: «إذا كان الترادف بين القلم والألم ترادفا قدريّا، فإنّ الكتابة والاكتئاب كذلك

أيضا، إنّها علاقة تبدأ من التشابه في الجذر اللّغوي وتمتدّ إلى الترابط شبه العضوي بين كافة أفعال الكتابة وتجلّياتها، وبين الاكتئاب النفسي للذات الكاتبة والجذر (كتب/ واكتئاب) لا يمثل تشابها صرفيّا مورفولوجيّا فحسب ولكنّه أيضا تفاعل دلالي وتبادل تأثيري»(الغذامي، 1998، صفحة 134). و بهذا القول يتفق مع "آسيا رحاحلّية" حول علاقة الكتابة بالألم في تأثر وتأثير متبادل بينهما.

نجد "محمد مفلاح" يحاول جعل القارئ أو المتلقي يتقاسم بشكل غير مباشر مع أبطال نصوصه الروائية الثلاث (الانهيار، الانكسار، والوساوس الغريبة) تلك اللحظة الشبقية بين هاجس الكتابة والإبداع، ورغم اختلاف الآلية لتحقيق ذلك إلا أنّ الهدف هو إثبات الوجود. أين لمسنا لدى كل من "محفوظ" بطل رواية "الانهيار"، و"عمار الحر" بطل رواية "الوساوسالغريبة"، و"بغداد البخلوني" في رواية "الانكسار"، كل منهم راغب رغبة جامحة في معانقة حلم الكتابة والذّهاب بها نحو مستوى الإبداع، أين نجد هذه النصوص الثلاثة حافلة بأهمية الكتابة ودورها في ترقية الفرد والمجتمع، من ذلك ماقاله "مفلاح" عن "محفوظ" « فهو يشعر بأنه يمتلك طاقة جبّارة يدُكُ بها كل الحواجز الصخرية وستكون الرّواية رائعة سترفعه إلى مصاف الكبّار، لامعنى لحياته إذا لم يكتب »(مفلاح، 2007، صفحة 6).

ويقول أيضا«عاد مُرهقا بالتفكير في مستقبله السّعيد في مستقبل الكتابة والشهرة والمال والمجد والأضواء »(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 8).وأيضا «لم يلتفت "محفوظ" إلى تفاهات الحياة وملذاتها سخر نفسه لهدف نبيل، سيموت وسيترك لوطنه إنتاجه الأدبي »(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 8)

مما نلاحظه هنا، أنّ ثنائية **(الكتابة /تفاهة الحياة)** تنعكس في أغلب المتون السّردية الثلاثة، فهيّ تعكس لنا فلسفة وجودية لدى أبطالها الثلاثة تتأصل في مواجهة فكرة الحياة التّافهة التي لا معنى لها، في كنف التهميش الذي يحسُّ به هؤلاء من طرف المجتمع. يقول مفلاح في روايته "الوساوس الغريبة":« وقلّب أوراق كُنّاشِهِ الأزرق الذي بسطه أمامه على الطّاولة الخشبية ثم كتب (الفراغ غول رهيب ينهش حياتنا اليومية بلا شفقة ولا رحمة ونحن

نتفرج عليه كالمُقيّدين ماذا جرى لنا يارب؟»(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 11).

ويقول أيضا في رواية "الانكسار"« شعر بتفاهة الحياة التي لم ترحم رجلا قرّر أن يعتزل الناس »(مفلاح، رواية شعلة المائدة وقصص أخرى (رواية الانكسار)، 2013، صفحة 370). ومن ذلك أيضا قوله في رواية الانهيار" « لم يجد من يفهمه في هذه الحياة التّافهة »(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 51).

والملاحظ أن الخلاص الوحيد من تفاهة الحياة في نظر" محفوظ" و"عمار الحر"و كذلك "بغداد البخلوني" يكون عبر الكتابة، فتتجلى أهمية هذا الفن الرّاقي باعتبار أنّ «الكتابة تولّد الحياة من ظُلمةِ الفقدِ والغيابِ»(بن السائح، 2010، صفحة 14). ولذلك قال "عمار الحر" مستدركا في رواية "الوساوس الغريبة"« لهذا ربما كان الفنّ وكانت الكتابة لمواجهة الفراغ المهول »(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 11).

وبهذا الشكل؛ نجد أنّ البطل "عمار الحر" يزرع في القارىء أو المتلقي الرغبة في ممارسة الكتابة كبديل عن الفراغ المُهوّل، شأنه في ذلك شأن "محفوظ الرّقي" بطل رواية "**الانهيار**" الذي تحدّث عن قيمة الكتابة ومكانة الكاتب داخل المجتمع وخصوصا حين يعقدُ مقارنة بينه وبين أبناء حارته، باعتباره شخصا مثقفا وطامحا في الكتابة، في الوقت الذي يلهث فيه أقرانه وراء ملذات الحياة، يقول الرّوائي « ولكن محفوظ لا يفكر مثل أبناء الحيّ ولا يجري وراء الملذات »(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 24).

أما "بغداد البخلوني" في رواية "الانكسار" فإنه ينصح "عباس البري"، الباحث عن ذاته واثبات وجوده قائلا: « طالع الكتب حتى تتحرر، أنا أعترف بأنّ مطالعة الكتب أسهمت في اتساع أفقي وأبعدتني عن حياة الناس التّافهة، أما أفكار ابن خلدون فقد ساعدتني على فهم المحيط الذي أعيشه»(مفلاح، رواية شعلة المائدة وقصص أخرى (رواية الانكسار)، 2013، صفحة 260).

ولابدّ أنّ المتأمل لطبيعة الطرح المفلاحي هنا خاصة فيما يتعلق بحديثه عن "الكتابة" ومعانات الأديب، يجد نفسه يتساءل فيما إذا كانت هذه مجرّد نصوص من نسج خيال

المؤلف، أم أنها عبارة عن سيرة ذاتية له، وعلى اختلاف الأبطال والأحداث إلاّ أنّ نظرتهم للكتابة مشتركة، همهم فيها واحد أيضا، وفيما إذا استطاع "مفلاح" أن يخلق تلك المسافة الفاصلة بين ذاته الكاتبة أبطاله ؟.لأن هذا ليس أمرا هيّنا خصوصا« حالة التماهي التي يعشها الرّوائي مقتنعا ببطله »(رابحي، 2016، صفحة 27).

ولكن في هذا الإطار؛ يجب التنويه أنّه لا ينبغي الحكم على عمل أدبي ما على أنه "سيرة ذاتية" بمجرّد أنّ هناك تفاصيل معيّنة تتشابه مع حياة الكاتب، أو إلى جانب منها؛ لأنّ "السيّر الذاتية" أولا هيّ جنس أدبي راقي له معاييره وموازينه الخاصة به، ولا يمكن الحكم أيضا على عمل ما أنّه كذلك إلاّ إذا كان الأديب يحترم معايير كتابة "السّيرة الذاتية" هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ هناك من يرى أنّ كتابة الذّات لا تعني بالضرورة سيرة ذاتية « ولا ينبغي النظر إلى كتابة الذّات على أنها كتابة السيّر الذاتية ذات البعد التربوي والتعليمي، بل أقصد منها الصيغة الملائمة للمرحلة حيث: "الذات" مصفاة الكتابة ومحبرتها في تذويت الواقع والوقائع المتسارعين »(معتصم، 2015، صفحة 8).

إضافة إلى أنّ المؤلف ببساطة « يكتب رواية مؤلفة من عدّة حكايات وشخصيات، وهو الذي يصنع كل مكوناتها السّردية، كما أنّ المؤلف ليس الشخصيات »(مرتاض، 1998، صفحة 207).ولعلّ السبب الثاني الراجع وراء اعتبار العمل الروائي "سيرة ذاتية" هو عند البعض راجع إلى استعمال ضمير المتكلم (أنا) أثناء سرد الأحداث وهنا نقول: « بأن السرد بضمير المتكلم على الرغم من تداخله مع السّارد، فإنّ أيّ عاقل سيميّز بين الأمر والأمر، وسيدرك أن هذا السّارد ليس إلاّ مؤلف النّص السردي قبل كل شيء، وهو مؤلف مباشر لا ضمني وحقيقي لا وهمي، وواقعي لا خرافي، ولكن الأحداث التي يسردها ليست حقيقية، ولكنها خياليّة، وخياليّة الأحداث لا ينبغي أن تزيح المؤلف عن مكانته التقليدية »(مرتاض، 1998، صفحة 208)

ننوه في الإطار ذاته؛ أن أهمية المسافة المتروكة بين الذات والنص، هيّ من القضايا التي اهتم بها النقد الثقافي، نظرا إلى ما« يمكن أن تختزنه المسافة الفاصلة بين الذات والنّص، من تراكمات تبدو على درجة كبيرة من الأهمية في مشاركتها في صناعة الصورة التي يسوقها الرّوائي عن منجزه السردي »(رابحي، 2016، صفحة 10). والأمر

راجع إلى « ما يحمله من شبهات تدور من حوله وتساعد القارىءعلى تكوين صورة عنه، لا تتوافق بالضرورة مع حقيقة الروائي من جهة، ولا تتوافق من جهة ثانية مع حقيقة ما يريد أن يكون عليه صورته وصورة منجزه عند القارىء »(رابحي، 2016، صفحة 10)

ونحن في هذا الإطار؛ لاندافع عن" مفلاح"، بل نحاول رفع الالتباس حول هذا الجانب حتى تأخذ دراستنا مجراها الطبيعي، فيما يتعلّق بأبطال "مفلاح" ومختلف الإشكاليات التي أرّقتهم والتي يُعدّ "واقع الكتابة ومشكل الإبداع" أحد الهواجس التي أرقت البطل المفلاحي في رواياته (الانهيار، الوساوس الغريبة، والانكسار)، حيث تعكس جانبا مُهمًا من حياة الكاتب وهو يعاني من مخاض ما قبل الولادة العسيرة للكتابة كما يقول "مفلاح"؛ أين يبرز لنا الحالة النفسية التي يمرّ بها الكاتب والتي تتجلى من خلال حواراته المتواصلة مع نفسه، ومع المجتمع في ظل صراعٍ مستمر قوامه البحث عن الجوّ الملائم لكتابة رواية جيّدة.

وهذا هو الهدف المشترك بين أبطال "مفلاح"، رغم اختلاف الغاية من وراء تحقيق هذا الحلم إلا أن الوسائل كانت مشتركة؛ وكأنّ "مفلاح" أراد أن يقول لنا أنّه مهما كان دافعك من وراء الكتابة؛ فإنّ هناك تقنيات مشتركة وجب على الجميع احترامها، ولوعدنا إلى الرّوايات لوجدنا أن غاية "محفوظ" من وراء الكتب والكتابة، هيّ الوصول إلى الشهرة وتحقيق المتعة الفنية وإثبات الذّات في رحلة البحث عن الأنا المهمّشة في حيّ شعبي، وذلك عبر ترك موروث عظيم كعربون وفاء لهذا الوطن العزيز، فيقول الروائي في رواية "الانهيار": « سخّر نفسه لهدف نبيل سيموت ويترك لوطنه إنتاجه الأدبي»(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 8) وبهذا نفهم أنّ « الذات الحالة "محفوظ" كان يرغبُ في موضوع الشهرة ويريد تحقيقه عبر الموضوع الإستعمالي "الكتابة"، الذي بذل نفسه من أجلها»(جلابي، 2015-2016، صفحة 59).

في حين؛ نجد أنّ غاية "عمار الحر" كانت خدمة نبيلة ممزوجة برغبة لاتقاوم في إثبات الذات من خلال إعادة الاعتبار لصديقه "عبد الحكيم الوردي"، ومحاولة إسماع صوته للعالم. وهذا هو المحرك الأساسي الذي دفع بـ"عمار الحر" لسبر أغوار الكتابة « أما ثيمة الكتابة التي حضرت في الرواية بشكل مكثف من بدايتها إلى نهايتها، فهيّ تحيل إلى تحوّل ثقافي رهيب بفعل الرّاهن السياسي، إذ تُلصقُ تُهمة القتل بشاعر بفعل مؤامرة رخيصة، وهو

من وجوه المدينة، ويتصدى كاتب لتدوين سيرته، وإثبات براءته وهو في حدّ ذاته يعيش الاغتراب في مجتمع آخر اهتماماته هو الكتاب و الكتابة »(خاين، 2009، صفحة 72).

وعبر هذا الأفق؛ وجد"عمار الحر" « في مشروعه الجديد الأمل الذي يسمح له بالعودة إلى الكتابة، فبالكتابة وحدها سيقضي لا محالة على حالة الوهن، التي لم يتمكن من تجاوزها رغم زيارته لعديد الأطباء »(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 20). وهنا نجد أن الروائي قد جعل الكتابة منبرا جيّدا ومضمارا مناسبا للشاب كي يستثمر فيه مواهبه الأدبية ويفجّر طاقاته الفكرية، وهذا ماعبر عنه من خلال "محفوظ الرّقي"، وكذلك "عمار الحر" على لسان "عمار الحر" فيقول: « الكتابة هيّ الرُّوح التي تمنح للحياة معناها الأسمى» (المصدر نفسه، صفحة 89).ويقول أيضا في رواية "الانهيار" عن "محفوظ الرّقي" « سيصبح رجلا طليق كالهواء يتمتع بحريّة يحطّم بها كل نواميس الكون التي تقيّد إرادة الإنسان »(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 78).

وكذلك الروائي "محمد مفلاح" الذي يجعل من الكتابة أفقا جديدا لولادة الذات الإنسانية وإعادة بعثها، وليس بالضرورة أن يبحث الإنسان عن ذاته ليكتب بل هيّ أيضا وجدت لانتشال الذات المهزومة التي تحسّ بأنّ مشوار العمر قد انقضي، فتأتي هذه الأخيرة لتبحث في تلك الذات نفسا جديدا للحياة يتجدد مع كل سطر تكتبه، من خلال التعبير عن خلجاتها والبوح بأفكارها؛ وهذا مايعرف بالتفريغ عبر فن التعبير، حيث يحضى« التعبير بمنزلة كبيرة في الحياة، فهو من ضروراتها، ولايمكن للإنسان أن يستغني عنه في أيّ مرحلة من مراحل عمره، ولا في أيّ مكان يقيم فيه لأنه وسيلة اتصال بين الأفراد في تبادل المصالح وقضاء الحاجات »(عبد القادر، 1984، صفحة 213).

فيما قد يذهب البعض إلى أبعد من ذلك عبر تخليد مواقف ولحظات من حياتهم، بعيدا عن عالم الخيال الذي يلامس الواقع بكل تجلّياته من خلال التأريخ لمحطات الذات الإنسانية عبر كتابة السيّر الذاتية، كنوع من التعبير عن كنهات النّفس وجوهرها والفضفضة « ذلك أنّ من يكتب سيرته الذاتية بحكم انتمائه إلى جماعة إنسانية مرتبطة بقيّمٍ معيّنة تشكل

وعيها، يجد نفسه مطالبا باتخاذ ذاته جسرا للعبور إلى الذات الجماعية وإلى ماهو كوني »(أفكوح، 2022).

وهذا ماصوّره "مفلاح" في رواية "الانكسار"، حينما يصفُ الوضع الذي آلت إليه حياة "بغداد البخلوني" قائلا: « لقد قضى بغداد البخلوني جلّ أيّامه مرهوّا بثقافته الواسعة وعقيدته السيّاسية قبل أن يبتعد عن الحياة الصاخبة ويحلم بكتابة سيرته الذاتية »(مفلاح، رواية شعلة المائدة وقصص أخرى (رواية الانكسار)، 2013، صفحة 370).

و ندرك هنا أهمية الكتابة في جميع محطّات حياة الإنسان، إذ أنّها تعتبرُ جسر تواصل بين البشر فيما بينهم، وبين ذواتهم من خلال تذويت النّص « عندما تصير الذّات حكاية في حدّ ذاتها، وعندما تجد نفسها واصفة وموصوفة في آن واحد، ساعتها تكون قد مدّت جسرا بين تمثّلها الذاتي ونُزُوعها الموضوعي، إنها بؤرة آثار عميقة، وساحة كشف واكتشاف لمجاهل الإنسان »(أفكوح و أبو شامة، مقالات نقدية حول أدب السيرة الذاتية الاسلامية، 2009).

وهذا ماحاول "مفلاح" إبرازه من خلال أبطاله، سعيا وراء الانخراط في مشروع الكتابة، حيث لم يجعلها حكرا على سبب أو عمر محدّدٍ، والأمر راجع إلى أنه « يمكن النظر إلى كتابة الإنسان على أنها استجابة(أو مجموعة من الاستجابات) لمثير (أو مجموعة من المثيرات)، وهذا المثير قد يكون داخليا كالرغبة في إفصاح الإنسان عن آرائه، أو بيان عواطفه ومشاعره، ونقل ذلك إلى شخص أو طائفة من الناس، وقد يكون خارجيا كالتأثّر بحادثة معيّنة، أو مشهدها، ورغبة في التعبير عن ذلك بإحدى الصّور المتعدّدة، وقد يكون المثير داخليّا وخارجيّا في الوقت نفسه »(تميم ، 2007، صفحة 101).

والملاحظ في هذا الشأن؛ أنّ هناك عواملٌ مشتركة تجمع بين "عمار الحر" في رواية "الوساوس الغريبة"، و"محفوظ الرّقي" في وراية" الانهيار"، و"بغداد البخلوني " في رواية "الانكسار"، وهِيّ عدا عن الحلم المشترك المتمثل في الكتابة فإننا نجد أنّ هؤلاء الأبطال يؤسسون لولادتِها عبر محورين أساسيين وهما (العزلة والقراءة)، أين آمنوا بأنّهما من أهم العوامل التي تؤسس للكتابة الإبداعية، يقول "محمد مفلاح" عن" محفوظ الرّقي" في رواية "الانهيار": « آمن محفوظ بأملاك العبقرية إيمانا مطلقا، وله مفهوم رومانسي لعملية الكتابة الإبداعية والمتمثل في انعزال الكاتب في برجه العاجي منتظرا لحظة الإلهام والوعي، البحث

عن الوحدة والسّكينة والتفرغ للكتابة الإبداعية مثلما فعل الرُّومانسيون الأروبيُّون في القرن 19، نظرة مثالية إلى الإبداع»(ساري، 1987).

ويقول "محمد مفلاح" يصف حال "محفوظ" « دار في الغرفة مردّدا، لابد لي من العزلة »(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 14) حتى أنه كان يطالب زوجته بها قائلا: « بلهجة قويّة: دعيني وحيدا، وأحيانا كثيرة يأخدها عنوة.. سيصفعها إذا لم تبتعد عنه صاح كالثور الهائج: أخرجي أخرجي وإلاّ..»(جلابي، 2015-2016، صفحة 38).

وهنا نجد أنّ "محفوظ الرّقيّ" قد آمن بفكرة أنّ الإبداع نظير للوحدة، وهذا مايدلُّ عليه قول "مفلاح" « ثمّ اكتشف محفوظ نفسه..فهو ليس مثلهم ولا يريد أن يكون مثل أي إنسان في داخله طاقة لم تنفجر بعد..النّاس لايقدّرون موهبته..يقولون عنه أنّه شاب متقوقعٌ على نفسه كالقنفذ، حيّرتهم وحدته القاتلة، لامته زوجته عن عزلته فأجابها بلهجة هادئة: إنها عزلة لاشعورية»(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 25).

ونجد هذه النزعة الرومانسية عند "عمار الحر" يقول الروائي في "الوساوس الغريبة": « وجد حسين السّعيد نفسه في مواجهة رجل قد تصلّبت مواقفه أكثر (عمار الحر)، ولم يُرِدِ الخروج من برجه العاجي، كما لم يستطع مواجهة خوفه من الآخرين»(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 91). أين تصور لنا الرواية منذ البداية تقوقع "عمار الحر" على نفسه وانغلاقه على ذاته، إلى درجة أنه رفض الزواج من "فوزية العسلي" رغم حبه الكبير لها، وكذلك تجنبه الخوض في الانتخابات والسياسة، كما اقترح عليه صديقه "حسين السّعيد"؛ ولذلك نجد فكرة العزلة تنهش عقل "عمار الحر" أيضا حين عبر بكل الطرق عن رفضه الشّديد للانخراط في تفاهات الحياة، كأي شخص مبدع، ولذلك خاف من فكرة الارتباط، وفي هذا المقام نستذكر قول كافكا: « إني أخاف الارتباط وأخاف فقدان ذاتي في كائن آخر لأني: لن أصبح وحيدا بعد ذلك »(كافكا، دون سنة).

ونفس الفكرة نلمسها عند "بغداد البخلوني" في رواية "الانكسار" الذي أختار العزلة، ودخول معترك الكتابة بذهن صَافٍ بعيدا عن تفاهة الحياة اليومية، يقول "مفلاح" عن "بغداد

البخلوني": « قبل أن يبتعد عن الحياة الصاخبة ويحلم بكتابة سيرته الذاتية »(مفلاح، رواية شعلة المائدة وقصص أخرى (رواية الانكسار)، 2013، صفحة 370).

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ العزلة في الأدب هيّ سمة بارزة عند العديد من الأدباء الغربيين مثل "كافكا"، وتنعكس في أغلب أعماله خاصة "المسخ"، وكذلك نجد "سالينغز"، الذي اعتزل الناس وأنجز روايته الناجحة "الحارس في حقل الشوفان" التي بيعت منها 65 مليون نسخة أيضا نجد "فرناندوسبيوا (1888–1935) ورائعته "الكاتب المختبئ وراء أنداده السبعين"(السعدي، 2016).

من ذلك ما نجده في العالم العربي عند الفيلسوف الإسلامي "أبو حامد الغزالي" وتجربته الملهمة بالاعتزال في موسوعته "إحياء علوم الدين"، الذي شرح فيها فوائد العزلة فيقول في أحد الأبيات:

لست أخلو لغفلة وسكون *** وفرارٍ من الورى وارتياح.

إنّما خلوتي لفكر وذكر***فهيّ زادي وعُدّتي لكفاحي.(السعيد، 2010)

وأيضا ما نجده عند الأديب المصري "توفيق الحكيم" حينما يختار العزلة التي أصبحت اليوم في نظر الكثير ضرورة مُلِحَّة حيث: « باتت الحاجة للعزلة عملا ضرورياّ لتنقية الرُّوح من كل آثار ما لحق بها من شوائب "توفيق الحكيم" أسماها عودة الرُّوح، لكن بالنسبة له كانت تأخذ بُعدًا اجتماعيا وثقافيا، أما أنا فأُسمّي الاختيارية للكاتب شيء من التقاط الأنفاس أو استعادة الرّوح »(نزال، 2019، صفحة 109).

وهذا ما يخلق نوعا من الصّراع الدّاخلي الذّاتي مع نفسه، وهو ما يبرّره "عبد اللّه الغذامي" قائلاّ: « إنّ الكتابة تتمنّا مع الذات من خلال كونها عملاّ انتقائيّا.. وهو انتقاء لا يتمُّ إلاّ بإلغاء أشياء أخرى وربّما تكونُ الملغاة أهمّ من المصطفى أو أدلُّ منه على الذّات»(الغذامي، الكتابة ضد الكتابة، 2009، صفحة 97).

رغم كلّ هذه الصّراعات إلاّ أننا نجد أنّ البطل المفلاحي دائما واع بما حوله، مدرك لمتطلبات كلّ مرحلة من مراحل حياته، منغمس في مشاكله وهو دوما في بحثٍ مستمرٍ عن حلّ جذري لمشاكله، ولعلّ درجة الوعيّ تتجلى في محاولة البطل "المفلاحي" دوما لتجاوز مخاوفه من خلال ميكانيزمات تعكس وعيه الثقافي مهما كان شخصا بسيطا و متواضعا؛ وهذا ماتعكسه كل من شخصية "محفوظ الرّقي" و"عمار الحر" وحتى "بغداد البخلوني"، ذلك

أنه رغم عجزهم عن مجارات كبار الكتاب، إلاّ أنهم اختاروا السّير على خطاهم ومنهجهم، فعدا عن فكرة العزلة. نجد أنّ "مفلاح" سيتعرض عبر متونه السرديّة الثلاثة(الانهيار– الانكسار–الوساوس الغريبة). ثلّة من كبار الأدباء ومؤلفاتهم التي كانت معوّلا اتكأ عليه أبطال "مفلاح" لتنمية مواهبهم الكتابية عبر القراءة.

وهذا أمر متفق عليه عند أغلبية الكُتاب، والنقاد العرب والغربيين على حدّ سواء، ذلك أنّ العلاقة بين القراءة والكتابة علاقة وطيدة ومتلازمة لأنّ « الإبداع في الأدب ملكة خاصة تولد مع الإنسان وتُصقل بالمعرفة لتزيد المخزون الفكري لمنظومة الوعي، ثم تتزاوج مع مدلولات منظومة اللّاوعي لخلق كائن إبداعي»(الربيعي، 2011، صفحة 57).

و تتجلى هنا أهمية القراءة إلى جانب عوامل أخرى تسهم في صقل موهبة الكاتب لتصل لدرجة الإبداع، ولوكان الشخص مبدعا بالفطرة « ومع أنّ الإبداع ملكة كامنة في ذات المبدع ودونها لا يمكن خلق إبداع جديد لكنها في الوقت ذاته بحاجة إلى منشطات فكرية تُعِينُها على النّشاط والفعالية وإلى الجهد والعناء الفكري يُفجّر براكينها الحسّية، لتنطلق إلى الخارج على شكل كائنات معرفية حسيّة تمارس مهامها وتؤدي رسالتها الإنسانية »(الربيعي، 2011، صفحة 57)

وهذا مانلمسه عند "محفوظ الرّقي": « ففي مثل هذه الحالة العصبية لا يمكنه أن يكتب، ولماذا لايقرأ؟ خطا نحو المكتبة التي كانت إلى جانب الخزانة المتواضعة، أمسك برواية "الجريمة والعقاب" التي سبق له قراءتها »(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 9).

وهذا مانجده أيضا عند "عمار الحر"، يقول عنه "مفلاح" في "الوساوس الغريبة":« إنه يتمنى لو كان قادرا على تأليف كتاب تتجاوز صفحاته الألف، فهو يحب الكتب الضخمة ويجد متعة كبيرة في تصفح أوراقها، ...وكان يقرأ بعض فقراتها ثم يضعها جانبا ويسبُّ نفسه على عجزها »(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 30).

ثم نجد البطل "عمار الحر" يتماهى في عالم القراءة بحثا عن الآليات التي دفعت بكبار الأدباء لتأليف أمهات الكتب التي إطُلع عليها، من ذلك قوله: « كيف استطاع "ابن

خلدون" أن يؤلف تاريخه المسمى(كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر)؟ وكيف تمكن أو "الفرج الأصفهاني" من تأليف (الأغاني)؟ ولما يقلب صفحات ثلاثية "نجيب محفوظ" يشعر بالرعب ويسبُّ نفسه »(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 30)

وهنا تتجلى تيمات الكتابة التي آمن بها أبطال "مفلاح" وأهمها "القراءة"، و أيضا عند "بغداد البخلوني" في رواية "الانكسار"، الذي نصح عباس البري قائلا: « طالع الكتب التي تتحرر فأنا أعترف بأنّ مطالعة الكتب أسهمت في اتساع أفقي، وأبعدتني عن الناس حياة الناس التافهة، أما أفكار "ابن خلدون" فقد ساعدتني على فهم المحيط الذي أعيش فيه»(مفلاح، رواية شعلة المائدة وقصص أخرى (رواية الانكسار)، 2013، صفحة 260).

ونلحظ هنا أهمية المطالعة عند البطل "المفلاحي" الطامح للكتابة، وهذا دأب عديد من الكتاب والمؤلفين. يقول "أمير تاج السّر" في كتابه "تحت ظلال الكتابة"، وهو يتحدّث عن علاقة القراءة بالكتابة والقراءة قائلا: « أعتقد أنّ القراءة هيّ وقود الكتابة وما لم يكن الكاتب قارئا فلن تنضج له (مخيلة أو طبخة) على الإطلاق، وهذا ما أعرفه بمجرّد قراءتي لأحدهم، أي أستطيع أن أعرف إن كان قارئا أم لا »(تاج السر، 2016، صفحة 243).

ويتضح جليّا عند "بغداد البخلوني" شغفه للمطالعة. يقول عنه "مفلاح" في رواية "الانكسار": « غرق في مطالعة الكتب الفرنسية أو المترجمة إلى الفرنسيّة، فقرأ روايات كثيرة كانت تحتفظ بها زوجته في مكتبة قديمة، ومنها البؤساء و "الأحمر والأسود" و"مدام بوفاري" »(مفلاح، رواية شعلة المائدة وقصص أخرى (رواية الانكسار)، 2013، صفحة 351).

وهنا نلاحظ أنّ "مفلاح" قد اشتغل مساحة كبيرة من المتن السردي لرواية "الانكسار" لاستعراض أكبر عدد ممكن من روائع الأدب العالمي الفرنسي، الروسي، والأمريكي، كما نجد أيضا الأدب العربي والجزائري أين يقول أيضا « واهتم بالأدب الجزائري فقرأ روايات "نجمة"، و"الحريق"، و"ابن الفقير"، و"التطليق" و"اللاز" و"ريح الجنوب"...» (المصدر نفسه، ص ن).أين نجده يشير إلى أهم رواد ومؤسسي الرواية في الأدب الجزائري من أمثال: "الطاهر وطار" و"ابن هدوقة" و"كاتب ياسين"...الخ.

ومن خلال كلّ هذا؛ نقول أنّ البطل المفلاحي وفّر إلى حدّ ما الجو الملائم الذي يراه مناسبا للانخراط في عالم الكتابة من وجهة نظره، وخصوصا في مايتعلق بفكرتي العزلة

والمطالعة المكثفة في سبيل الوصول إلى مرحلة الكتابة الإبداعية، وهنا يجدر بنا الإشارة إلى ماصرّح به الكاتب "أمير تاج السّر" بخصوص هذا الموضوع قائلا: « أما السؤال عن الطقوس المطلوبة لكاتب سيطرق باب الكتابة لتجميع الحكي المشتت، وتضفيره في نصّ، فإنّ الموضوع يختلف من كاتب لآخر بالتأكيد. ومعلوم أنّ الكتابة بالرغم من كونها علما يمكن تدريسه للراغبين في اتخاذها مهنة فإنها أيضا علم بلا أدوات ثابتة بمعنى أن مايفعله كاتب من أجل الإيحاء، قد يدمّر كاتبا آخر ويطرد الإيحاء منه إلى الأبد »(تاج السر، 2016، صفحة 242).

وبالعودة إلى أبطالنا؛ نجد أنّ المتون السّردية "الانهيار"، "الانكسار"، و"الوساوس الغريبة" قد عكست صورة لأوجاع الذّات الكاتبة ومعاناتها وعسر الإفصاح والبوح عن الهمّ اليومي الذي يلاقيه الكاتب تحت وطأة العبث في الحياة، وفساد المجتمع، وتخلّفه أحيانا كثيرة، لتغدوا الكتابة عند "عمار الحر"و "محفوظ الرقيّ" و" بغداد البخلوني" ظاهرة أدبية ليست في متناول الجميع؛ ذلك أن « التفكير في الرواية ليس تفكيرا في مجرّد، وإنّما تفكيرٌ في كلّ ما يتعلّق بعناصرها، وبالتالي يختلف واقع الذّات الباطلوجي (الصداع) عن واقع الذات الإبداعي (التفكير) »(بن جلولي، 2009، صفحة 67).

وعليه نجد أنّ سؤال الكتابة وعوامل الإبداع الذي ظلّ عالقا في أذهان الأبطال طيلة المتون السردية الثلاث (الانهيار، الانكسار، الوساوس الغريبة)، لم تجب عنه نهاياتها، بقدر ماتجاوزته إلى الحديث عن نفسية الكاتب في حدّ ذاته باعتباره الباحث عن وجوده وانتمائه، من خلال الكتابة التي شغلته عن كلّ ما حوله فأصبح لا منتميّا؛ ذلك أنّ « اللامنتمي يكف عن كونه لا منتميا حين يشغله أمر، حين تقلقه قلقا جنونيا، الحاجة إلى الخلاص»(ولسن، 1989، صفحة 60).

ولذلك؛ نجد أنّ "مفلاح" قد اتخذ من الإبداع مطيّة لإثبات الذات، شأنه في ذلك شأن الكثير ممن يؤمن بأن« الباعث الأساسي للإبداع، وكأنه النزعة نفسها التي نكتشفها في أعماق الإنسان على أنها القوة الشافية في العلاج النفسي، أيّ نزعة الإنسان لأنّ يحقق ذاته وأن يخرج إمكاناته للعيان »(فرنون، 2015، صفحة 72).

وفي هذا الإطار؛ نجد أنّ "بغداد البخلوني" لم ينجز سيرته الذاتية التي سخّر لها كل الإمكانات، وهاهو ذا "عباس البّري" بفلسفته الوجودية الناقمة على كلّ شيء، ينقل لنا خبر إصابته (بغداد البخلوني) بحادث مرور في لحظة من لحظات الاسترجاع التي شغلت مساحة كبيرة من السّرد المفلاحي، في رواية "الانكسار" أين يقول "مفلاح": « تذكر عباس اللّحظات التي التقى فيها "بغداد البخلوني" بمكتبة البلديّة »(مفلاح، رواية شعلة المائدة وقصص أخرى (رواية الانكسار)، 2013، صفحة 370).

والملاحظ أنّ "مفلاح" يتوقف عند هذه (المحطة أو اللحظة) عن الخوض في هاجس الكتابة عند البطل "بغداد البخلوني"، كما أنه لم يتحدّث في بداية رواية "الانكسار" عن هذا الهاجس، وكأنّ "مفلاح" هنا أراد القول أنّ الكتابة ليس شرطا أنّ تَلَدَ فينا كرغبة جامحة ومُلحّة، بل قد تصبح كذلك بفعل الظروف كما أنّها تتوقف بفعل الظَروف أيضا، ورغما عنّا كما هو الحال عند "بغداد البخلوني" وهذا هو حال الفن بصفةٍ عامةٍ، وهدف الإنسان من خلق هذا العالم الجميل« وإذا كان" الفنّ مرآة الحياة" كما يقول "أرسطو" فإنّ هذا الفن ليس تهويما في البعيد، أوهروبا من المشاكل، وإنما هو مواجهة حقيقية واقتحام جريء وقصد مسؤول، في هذا الزمن، وفي هذه البقعة من العالم لتكون فعلا مشهودا على هذه المرحلة »(نوادر، 2020، صفحة 84).

وهنا نقول؛ أنّ الكتابة قد تكون مرحلة عمريّة أو لحظة من لحظات العمر، وكذلك هو حال "بغداد البخلوني"، في حين أنها قد تمثل عمرا بأكمله عند أحدهم، تحدّد مصير مستقبله أو تغيّر ماضيه، وهذا هو حال كل من "عمار الحر"، و"محفوظ الرّقي" حين نجد أنّ سعي "عمار الحر" نحو تغيير ماضيه القاسي وإنقاذ صديقه "عبد الحكيم الوردي"، يقول "مفلاح" « سيقف إلى جانبه حتى يطلق سراحه، وهو سعيد أيضا بهذه الصّداقة التي حفزته على الكتابة، وسيضمن الشهرة بهذا الكتاب إذا تكمن من إنجازه قبل أن يفقد حماسه»(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 27).

ويقول أيضا: « فبالكتابة وحدها سيقضي لا محالة على حالة الوهن التي لم يتمكن من تجاوزها رغم زيارته لعديد من الأطباء»(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 20)وفعلا قد أثمرت محاولات "عمار الحر" اليائسة، واستطاع أخيرا أن يعانق حلم الكتابة، بعد أن تصالح مع ذاته ومع المجتمع، وخرج من

حالته النفسية المتأزمة التي أرجع سببها الرئيسي إلى المجتمع والبيئة المحيطة، بما فيها خطيبته "فوزية العسلي"، والراهن السياسي، يقول "مفلاح": « وكان إذا عثر على موضوعٍ صالحٍ للكتابة يشعر بالملل والعجز »(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 20)

ومن قوله أيضا في رواية "الوساوس الغريبة": « وإذا إجتهد وطاوعه القلم، وكتب بعض الفقرات فإنه لا يلبث أن يمزق الأوراق المسودّة، ثم يحكم على نفسه بالعقم، وكان يرجع سبب عجزه عن الكتابة إلى وضع البلاد وانعكاساتها وإلى كلام والدته المشتكية منه ولوم "فوزية العسلي" المتشككة في علاقتهما»(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 20)

ثمّ ماتلبث أن تتحرّر ملكة الإبداع عند "عمار الحر" مزامنة مع تحرّره الفكري وخروجه من القوقعة التي ظلّ بداخلها لمدّة طويلة؛ وهذا ماتكشف عنه الجمل التالية « لا لن يضيّع وقته في الصراعات السياسية التي تشتدّ حدّتها كلّما اقتربت مواعيد الانتخابات » (نفسه، ص ن). و بذلك « لن يهدأ له بال حتى ينهي كتابه الجديد ولكن عليه أولا أن يخلي ذهنه من كلّ المشاكل التافهة، وجلس على حافة السرير وهو يركز نظره على القلم الرابض على الورقة التي غزتها حروف صغيرة »(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 88)

وبذلك انتصر "عمار الحر" على مخاوفه كأنها مخاض ما قبل الولادة الفعلية لنصّه، الذي لم يرى النور إلا مع الجمل الأخيرة التي تؤسس لنهاية الرواية، أين يقول: « وستكون والدته عظيمة..ستدوي زغرودتها القوية في أرجاء المدينة...وعاد إلى مكتبه الخشبي فجلس على الكرسي وامتدت يمناه نحو الفنجان فرشف منه قهوة باردة ثم أمسك قلم الحبر وشرع في الكتابة بشوق ومحبة كبيرة »(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 164) وهنا تكشف الرواية عن رؤية مستقبلية لكاتب عظيم اسمه "عمار الحر" الذي« عاد إلى الكتابة فالمهم عنده الآن هو أن يكتب...وسيبرهن لفوزية العسلي" بأنه الأقوى..وسيثبت للنائب ولكلّ النّاس بأنه قادر على العطاء..ولن يسمح للملل أن يستولي

على نفسه سيقاومه حتى ينجز عمله وواصل الكتابة بمحبة كبيرة »(مفلاح، الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)، 2005، صفحة 165)

وهنا يعثر "عمار الحر" على ذاته في اللّحظة التي فهم فيها معنى الكتابة مع الحياة، بعد أن رفض أن تكون حياته خالية من أي إبداع، يقول "مفلاح": « إنه لايريد أن تمرّ حياته بلا إبداع، لقد نقل من رسائل "تولستوي" فقرة قصيرة كتبها في صفحة من كنّاشه الأزرق » (نفسه، ص ن) وقد جاء فيها مايلي: « ليس هناك متعة حقيقية تعادل متعة الإبداع، ومهما كان الذي تنتجه قلما أو حذاءا خبرا أو طفلا، فلابد من الإبداع لتوفير المتعة الحقة، وحينها يغيب الإبداع ويقترن العمل بالضيق والألم أو بالنّدم والخجل) »(نفسه، ص ن).وهكذا استطاع البطل "عمار الحر" أن يتجاوز أزمته ويتغلبّ على معوقاته.

و نجد" محفوظ الرّقي" بطل رواية "الانهيار" قد سلك نهجا آخر في مواجهة تلك التّحدّيات التي قال عنها "مفلاح"« ذرع محفوظ الفرقة متضايقا.. وماذا ينتظر ليكتب روايته الأولى؟ ألقى نظرة باردة على أوراقه، لقد جفّ الينبوع إذن »(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 6).لم يستطع "محفوظ" تحقيق حلمه بكتابة رواية ناجحة عن جاره "حمزة المزلوط" التي اعتبرها بمثابة أفق لتحقيق طموحه كي يصبح كاتبا مشهورا، وفي هذا الأمل رأى "محفوظ" مستقبلا مشرقا بانتظاره لكنه سرعان ما يجد نفسه يتخبّط في ظلّ الجفاف الأدبي، أين يصوّر لنا "مفلاح" وعلى مدار مساحة كبيرة من المتن السّردي لرواية "الانهيار" محطّات ولحظات كثيرة تتأزم فيها الحالة النفسيّة لـ"محفوظ" وعجزه عن الكتابة، رغم كلّ المجهودات التي بذلها لتحقيق هذا الحلم وكتابة أولى رواياته عن "حمزة المزلوط"، فنجد البطل "محفوظ الرّقي" يحاول في كلّ مرّة إيجاد مخرج للأزمة، غير أنّه في كلّ مرة يجد مبرّرا لفشله، فنجده مرّة يتهم الهموم قائلا: « إنها الهموم يا"محفوظ" حقّا إنّ الهموم تثبّط عزيمة العمل وتقتل الإرادة الفولاذية »(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 6)،ثمّ مايلبث أن يستدرك الأمر عندما يتذكر أمر الصعاليك وغيرهم من الأدباء الذين «تحدّوا الظروف وأخضعوها لإرادتهم القويّة »(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 6)؛ فيجسّد لنّا "مفلاح" تلك المفارقة بين طموح "محفوظ" والتحدّيات التي واجهها، فكان في كلّ مرّة يسقط وينهض وكأنّه يتصارع مع عجزه، ومن ذلك نجده يقول: « أنا قرد...أنا مجرّد كاتب مقلّد...عاش حياته مقلّدا الآخرين

في كلامهم وفي طريقة تفكيرهم»(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 8) ثمّ ما يلبث أن يقول في موضع آخر: « ستصفق السماء وستطلع الشمس... وسيكتب عن الرّجل الذي سبّ أصله.... وزوجته»(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 8)

غير أنّ الحالة النفسية لمحفوظ تزداد تعقيدا فيصبح أكثر تهجما على المجتمع وعلى زوجته "ربيعة" التي حاولت استعادة زوجها وحبيبها الذي سرقته منها الكتابة، لكن مشاكلها تزداد في منحى تصاعدي، والأمر هنا مغاير تماما لما حدث بين "عمار الحر" وخطيبته "فوزية العسلي" في رواية "الوساوس الغريبة"، و"محفوظ الرّقي" وزوجته "ربيعة" هنا ذلك أنّ" محفوظ" كان يجعل في كلّ مرّة البؤرة بينه وبين زوجته تتّسع أكثر « وأمام تفاقم همومه ومشاكله الزوجيّة قلّت قدرته تماما وجفّ ينبوعه، جلس "محفوظ" أمام أوراقه المبعثرة ماذا سيفعل الآن؟ هل يعود إلى الكتابة ؟ ولم لا؟ هل يستطيع الكتابة؟.. إنه لا يشعر بأي رغبة في الكتابة مزّق الورقة ووضع يده على خدّه الأيمن »(جلابي، 2015-2016، صفحة 64).

وهنا يصوّر لنا "مفلاح" أحد الجوانب المظلمة والحسّاسة في حياة الأديب وهيّ قدرته على تحقيق التوازن والانسجام بين شخصه كزوج وأب وإنسان، وبين شخص ككاتب وهذا مايعجز عن تحقيقه عديد من الأدباء والكتاب، من ذلك نجد شواهد كثيرة من تاريخنا الأدبي تحيلنا إلى مدى خطورة هذه الإشكالية على الأديب مع نفسه ومع المجتمع « وهيّ حالة مرض كثيرا ماتثير السّخرية، حالة أشبه تماما بحالة ذلك الشاعر الذي يحكي عنه "رسول حمزا توف" في كتابه الممتع "داغشان بلدي"، والذي حين دخلت عليه عروسه الجميلة ليلة زفافه تركها وراح يفكّر في إنشاء قصيدة ولمّا طال الليل وعسرت ولادته كانت العروس الجميلة قد يئست من انتظاره ونامت »(عامر، 2012، الصفحات 11-12).

وهذا مالمسناه من سلوك معادي لمحفوظ" على زوجته "ربيعة" يقول مفلاح: « استيقظت ربيعة مفزوعة كانت الساعة الواحدة ليلا..ألقت نظرة على مكان زوجها الفارغ، ألا ينام؟ لم كرهها ونفر من النوم قربها؟ ولم يعد يحدثّها عن المشاريع والأحلام الوردية والمستقبل الباسم؟ نفر حتى من طبع قبلة على خدّها أو فيها.. منذ خمسة أشهر لم

يمسها..ابتعد عنها دون أن يقدّم لها أي تفسير»(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 10).

وأمام هذا التأزم العاطفي والحياة غير المستقرة للبطل "محفوظ"؛ تتلاشى رغبته في الكتابة، وتختفي مُخلّفة جوّا محموما في حياته، لتحدث الفاجعة في المشهد المأساوي، أين يصوّر لنا "مفلاح" لحظة قتل "محفوظ" لزوجته قائلا: «وفجأة تفطّن محفوظ إلى وضعه هل استولى عليه جنون الغضب والخوف والأخطار فقتلها؟..هزّ زوجته فوجدها جثة هامدة تمزّق قلبه الرّقيق خوفا وألما»(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 109)

وهنا نلاحظ المصير الذي آل إليه "محفوظ" وقد تحوّل إلى مجرم، يؤلمنا أن نقولها، ولكن رغبته في الكتابة جعلته مجرما، فكيف لشيء وجد لمعانقة الذات الإنسانية أن يتسبب في المأساة ويصنع النهاية المأساوية؟ "محفوظ الرّقي" تحوّل مجرما ومصيره السجن، بينما تزف زوجته الضحيّة "ربيعة" إلى القبر مثواها الأخير. وتنتهي الرواية على مشهد "خضرة" وهيّ تبكي بحرقة "محفوظ" الشّقي وهي تقول: « لماذا يا"محفوظ" تركتني وحيدة؟ لماذا انتهيت قبل أن تكتب روايتك؟ لماذا؟ وأخفت وجهها الشاحب بين أصابع يديها ورددّت:لن أنساك يا"محفوظ" »(مفلاح، الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)، 2007، صفحة 114)

3.خاتمة:

لقد أظهر الخِطاب الروائيّ عند "محمد مفلاح" درجةً من التطوّر والوعي الفكري من خلال القضايا التي حَملَهَا بطلُهُ الروائي؛ بتجاوزه مرحلة الاهتمام بالصّفات الخارجية للبطل إلى محاولة إقحام القارئ بالأفكار والإيديولوجيّات التي يؤمن بها البطل، والسّعي معه بشكل غير مباشر في محاولة البحث عن مخارج وحلول لقضاياه ومشاكله وهواجسه التي تؤرقه؛حيث تظهر صورة البطل في رواياته الثلاث "الانهيار"، "الانكسار"و"الوساوس الغريبة" حزينة رغم قوتها في بعض النماذج الروائية وهيّ ذريعة لتعرية الواقع الاجتماعي البائس؛ ولهذا جاءت إشكاليات الكتابة واثبات الوجود لتعكس أزمة المثقف في الجزائر، ومعاناة الفرد منالتهميش داخل مجتمعه وإحساسه بالاغتراب، وهذا ما يوضحه دور البطل الإشكالي داخل روايات "مفلاح".

4. قائمة المراجع:

* المؤلفات:

- أحمد محمد عبد القادر. (1984). *طرق تعليم اللغة العربية*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- آسيا رحاحلية. (2017). *عن الكتابة والولادة*.
- الأخضر بن السائح. (2010). *سرد المرأة وفعل الكتابة*. الجزائر: دار التنوير للطباعة والنشر.
- أمير تاج السر. (2016). *تحت ظل الكتابة*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- أمين السعدي. (2016). *وصفوهم بالخائنين الفاشلين، أدباء آثروا العزلة فأبدعوا*.
- ب ي فرنون. (2015). *الإبداع نصوص مختارة*. دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.
- راجح حسين تميم. (2007). *الكتابة الإبداعية*. الإمارات العربية المتحدة: دار الكتاب الجامعي.
- زاهي وهبي. (2015). *الكتابة ولادة-جريدة الحياة*.
- سليم نزال. (2019). *قبسات في الفكر والثقافة والايديولوجيا*. لندن.
- صاحب الربيعي. (2011). *تقنيات وآليات الإبداع الأدبي*. سوريا: صفحات للدراسات والنشر.
- عبد الحفيظ بن جلولي. (2009). *الهامش والصدى*. الجزائر: دار المعرفة للطباعة والنشر.
- عبد الرحمن منيف نوادر. (2020). *الكاتب والمنفى (هموم وآفاق الرواية العربية)*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- عبد القادر رابحي. (2016). *إيديولوجيا الرواية التاريخية والكسر التاريخي: للوطن اليوم*. سطيف: دار النهار للطباعة والنشر.
- عبد الله الغذامي. (2009). *الكتابة ضد الكتابة*. بيروت: دار الأدب للنشر والتوزيع.
- عبد الله الغذامي. (1998). *المرأة واللغة*. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- عبد المالك مرتاض. (1998). *في نظرية الرواية، (بحث في تقنيات السرد*. الكويت: سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- فاطمة الزهراء مضوي، و سارة منبه. (2012-2013). *البطل الوجودي في رواية اللص والكلاب لنجيب محفوظ*. سوق أهراس: 2012-2013.
- فرانس كافكا. (دون سنة). *حكم*.
- كولن ولسن. (1989). *سقوط الحضارات*. بيروت: دار الآداب للطباعة والنشر.
- محمد ساري. (1987). *رواية الانهيار*.
- محمد معتصم. (2015). *قراءة الرواية وكتابة الذات، (دراسات في تجريب الرواية العربية)*. عمان: منشورات دار فضاءات للنشر والتوزيع.
- محمد مفلاح. (2007). *الأعمال غير الكاملة، (رواية الانهيار)*. الجزائر: دار الحكمة للنشر والتوزيع.

- محمد مفلاح. (2005). *الوساوس الغريبة (على هامش مقتل الأرملة الثرية)*. الجزائر: دار الحكمة للنشر والتوزيع.
- محمد مفلاح. (2013). *رواية شعلة المائدة وقصص أخرى (رواية الانكسار)*. قسنطينة: دار أيدكوم للطباعة والنشر.
- مخاوف عامر. (2012). *الكتابة لحظة حياة (مقالات في القصة والرواية والشعر ونقد النقد)*. الجزائر: دار الحكمة للطباعة والنشر.
- وليد السعيد. (2010). *المساجلات الشعرية 6*.

*المقالات:

- امحمدة خاين. (2009). *تحليل موضوعاتي لرواية الوساوس الغريبة لمحمد مفلاح* (المجلد 5). وهران: مجلة اللغة والاتصال.
- عبد الفتاح أفكوح. (2022). *أدب السيرة الذاتية*. منتديات مجلة أقلام الثقافية.
- عبد الفتاح أفكوح، و المغربي أبو شامة. (2009). *مقالات نقدية حول أدب السيرة الذاتية الاسلامية*. أكاديمية الفينيق.
- نور الهدى جلابي. (2015-2016). *النموذج العاملي في رواية الأمير*. بسكرة: جامعة محمد خيضر.